

البحر المحطية لهاينرش فون كلايست

بمقتضى
الدكتور مصطفى ماهر

(الشرقية) لأب من النبلاء كان محترف الجندية وراثة عن آبائه وأجداده . فلم يكن الأب أول ولا آخر من عمل من عائلة فون كلايست في الجيش البروسي ، بل كان واحداً من عشرات قدمتهم إلى الجندية ، فتحلقوا بأخلاقها وتمسكوا بتقاليدها التي غرسها فريدرش الأكبر والمتبع لأسرة فون كلايست يتبين أنها من أصل سلافي (والمعروف أن أسراً كثيرة من المنحدرة من أصول سلافية أنجبت عباقرة وأفذاذاً ، نيتشه مثلاً) وأنها استقرت في الربوع الشرقية من ألمانيا في وقت مبكر واحتلت لنفسها مكاناً مرموقاً بين الأسر العريقة ، وخلدت اسمها بعدد كبير من القادة الأفذاذ ، والأدباء المبرزين . وتلقى هاينرش تعليمه الأول في البيت على يد مدرس خاص ، كالعادة في الأسر الغنية الرفيعة ، وتأثر بهذا التعليم الأول تأثراً كبيراً . والظاهر أن هذا المعلم كان معجباً بتلميذه وكان يتنبأ له بمستقبل فريد ، فقد قال عن تلميذه : « إنه عقل ناري لا يخبأ ، بل يتأجج حتى لأبسط الأمور ، ولا يهدأ في مضمار تنمية معارفه ، أوتي قدرة ذهنية عجيبة وحباً وحاساً شديداً للتعليم . لقد كان باختصار أكثر الناس صراحة واجتهاداً ، وكان إلى ذلك يتسم بالتواضع » .

في ٢١ نوفمبر عام ١٨١١ خرج شاب في منتصف العقد الرابع من العمر تصحبه شابة نصره به يضع سنين من فندق يطل على بحيرة الفانزيه قرب برلين ، وسار الاثنان برهة ناحية البحيرة ، ثم وقفا وأخرج الشاب من جيبه مسدساً سدده إلى صدر رفيقته وضغط على زناده فخرت من فورها ، ثم وضع فوهته في حلقه وضغط ضغطة ثانية فهوى إلى جانبها . وأسرع من بالفندق إلى مكان الطلقتين فوجدوا جثة هنريته فوجل وجثة الأديب الألماني هاينرش فون كلايست . وتأثر من تأثر من الواقفين وربما بكى البعض ، لكن أحداً لم يقدر الخسارة التي منى بها الأدب الألماني والأدب الإنساني كله ، عندما توقف هذا القلب عن الانتفاض وثلت هذه اليد عن الحركة . وظلت الأيام تصهر ما بقي من أعمال هذا الأديب المنطلق المرتد فتزيدها وضوحاً وتؤكد كرم معدنها حتى أصبح فهرس الدرر الألمانية يضم أعمال جوته وشيللر وهاينرش فون كلايست فلا يفرق بينها .

(١) حياة هاينرش فون كلايست

ولد هاينرش فون كلايست في ١٨ أكتوبر عام ١٧٧٧ بمدينة فرنكفورت - أودر (حالياً في ألمانيا

فلما مات أبوه أرسلته الأسرة إلى قسيس إنجيلي في برلين كان يعمل في الوقت ذاته مدرساً بالمدرسة الفرنسية ببرلين ، فأقام عنده للعلم . لم يختلف هاينرش إذن إلى مدرسة من المدارس الحكومية أو الخاصة ، بل تعلم على أيدي المعلمين الخصوصيين . تعلم اللغة الفرنسية وأجادها قراءة وكتابة وحديثاً ، وكانت هي لغة الكبراء ، وأحاط بطرف من الثقافة الفرنسية كبير ، وكانت الثقافة الفرنسية هي الثقافة الأولى يتشبث بها الملك فريدرش الثاني ويتبعه في ذلك البلاط والكبراء ومن يريد حذو حذوهم .

فلما بلغ الخامسة عشرة من عمره لم يسأله أحد عن المهنة التي يريد أن يحترفها فقد كان مفهوماً أن الجندي تنتظره ، الجندي ولا حرفة غيرها ، وهكذا وجد نفسه في الحرس البوتسداي يتدرج في مدارجه حتى يصبح ضابطاً . وما لبثت الحرب أن استعرت بين بروسيا وفرنسا على أثر الثورة الفرنسية (١٧٨٩) ، ونزل « الصبي » بدرجة ملازم مع الجيش البروسي إلى الميدان وجرب الحرب في معركة الراين في ماينتس عام ١٧٩٣ ، وعرف أهوالها على حقيقتها ، فلما أوشكت الحرب على نهايتها كتب في خطاب له يقول : « عسى أن تمن علينا السماء بالسلام حتى نعوض الوقت الذي قضيناه هنا في التقتيل بلا وازع من الأخلاق ، نعوضه بأعمال يحبها الناس ، بأعمال في صالح البشر . » كان هذا هو الدرس الذي تعلمه من الحرب ، وكانت هذه بداية التحول العظيم في حياته .

وانتهى حصار ماينتس بعد « صلح بازل » ، وخرجت بروسيا من الحرب ، وعادت الكتيبة إلى بوتسدام . وساد السلام المؤقت الربوع الألمانية وأنتج جوته وشيللر وغيرهما الكثير . وبدأ الجيل الأول من الرومانتيكيين الألمان في الزحف بأعمال في النقد وبترجحات من الإنجليزية والأسبانية . لكن السلام الذي تحقق لم يدم طويلاً . فقد فشلت الدول الأوروبية

المناهضة للثورة الفرنسية (النمسا ، إنجلترا ، بروسيا) في القضاء على الثورة الفرنسية وإعادة النظام الملكي ، وبدأ نجم نابليون في الظهور . هنالك وجد جنود بروسيا أنفسهم يتحولون بعد الفشل في المعركة إلى شيء ناقص ، مشوه ، فيتزمر منهم من يتزمر ، وينصرف عن الجندية من ينصرف . وكان هاينرش فون كلايست من الفريق الذي قرأه على ترك الجندية . فراح يركز اهتمامه على الفن والفلسفة واللغات القديمة والرياضيات والفلسفة ، ويستعد تدريجياً لتنفيذ قراره ترك الجندية : « لقد تحولت أعاجيب النظام العسكري العظيمة التي يدهش لها العارفون بها جميعاً ، إلى أمور ينصب عليها جام احتقارى ، ولم أعد أرى في الضباط إلا مروضين ، ولم أعد أرى في الجنود إلا عبيداً . كانت الكتيبة إذا قامت بعرض أفانينها تلوح لي كتمثال حي يمثل الطغيان هذا إلى أنني بدأت أحس إحساساً قوياً بأن وضعي الشاذ يؤثر على أخلاقي . فقد كنت في بعض الأحيان أجلنى مضطراً إلى المعاقبة في موقف كنت أفضل فيه العفو ، أو أجلنى مضطراً إلى العفو في موقف كان الأحرى بي فيه أن أعاقب ، وكنت في الحالين أشعر بأنني ارتكبت ذنباً وبأنني أستحق العقاب » .

وهكذا ذهب هاينرش فون كلايست في يوم من الأيام إلى رئيسه وقدم إليه التماساً باعفائه من الخدمة . وخرج من الجيش . ولم يكن هذا عملاً هيناً ، بل كان عملاً « مشيناً » في نظر أسرة فون كلايست ذات التاريخ الطويل في السلك العسكري وفي البطولة . وبدأ الصدع بينه وبين عائلته يتسع ويزداد عمقاً . والتحق كلايست عام ١٧٩٩ أى وهو في الواحد والعشرين من عمره ، بجامعة فرنكفورت - أودر ليتابع دراسة الرياضيات والطبيعات ، وهو يحلم بأن يصبح « عالماً » . لكن الجامعة لم تقدم له المادة الرفيعة التي كان يتخيلها ، ففكر في تركها والانتقال إلى جامعة أخرى ، مثل جوتنجن .

ولكن أحداثاً طرأت على حياته غيرت مجراها . كان هاينرش في برلين على علاقة بأقارب وأصدقاء يهمنهم شخصان : أولاً واحدة من بنات عمومته تدعى ماري فون كلايست كانت على صلة طيبة بالبلاط الملكي ، فاستغلت الصلة أكثر من مرة في السنوات القادمة لمساعدة هاينرش ، وكانت تكن لهاينرش الحب والتقدير ، وكان هاينرش متعلقاً بها أشد التعلق حتى أنه اقترح عليها أن ترافقه في انتحاره ، فلم تفهم مقصده ، وعاشت لتتلقى آخر ما كتب هاينرش ؛ ثانياً واحدة من بنات الأسر العريقة ، هي فيلهلمينه فون تسينجه ، ابنة أحد جنرالات الجيش ، هام بها هاينرش وتعلق بها أشد التعلق ، وكتب إليها خطابات جميلة ، وصلنا عدد منها ، وخطبها خطبة لم تنته بزواج ، لأسباب كثيرة سنشير إلى بعضها فيما بعد . ويبدو أن صلة هاينرش فون كلايست بفيلهلمينه فون تسينجه دفعته إلى الانصراف عن الدراسة والانتقال إلى برلين وقبول وظيفة في الحكومة تتصل بأمور التجارة والصناعة والمالية . ولكنه ما لبث أن أحس أنه لم يخلق لهذه الوظيفة تماماً كما أحس من قبل بأنه لم يخلق للجيش . « إن على أن أفعل ما تطلبه مني الدولة ، وليس لي أن أبحث فيما إذا كان هذا الذي تطلبه مني خيراً أو شراً . على أن أتحوّل إلى مجرد آلة تنفذ أهدافها المجهولة — وهذا شيء لا طاقة لي عليه » . وتجددت الحيرة ، وزادها تفاقم إصابته هاينرش بمرض مجهول ، لا تعرف من أمره إلا تلميحات . كل ما نعرفه على وجه التحديد أن هاينرش فون كلايست حصل في أغسطس عام ١٨٠٠ على أجازة قام برحلة إلى ليبتيكسج ودرسدن وفورتسبورج . وكتب إلى خطيبته خطابات كثيرة يصف فيها مشاهداته وانطباعاته ويتكلم بلسان من أضناه سقم فخرج يلتمس دواء فأوشك أن يجده . وكتب إلى أخته أولريكة يتحدث إليها عن الاضطراب الذي يعيش فيه وعن الحيرة التي استبدت به وعن

عجزه عن التوفيق بين الأشياء في كل منسجم . وأغلب النقاد يرون أن سبب الرحلة هو التماس طبيب ما يعالجه من مرض يحول بينه وبين الزواج .

المهم أن هاينرش فون كلايست أحس وهو في فورتسبورج لأول مرة أن طريقه هو الأدب ، أحس أن له القدرة على ابتداع أفكار أدبية وصفاً في قوالب أدبية ، وصور له طموحه أن في إمكانه أن يصبح الأديب المبدع ، كما صور له من قبل أن في إمكانه أن يصبح عالماً مرموقاً . فلما عاد من رحلته ترك الوظيفة « لقد تعودت أن أسعى إلى أهدافي أنا ، وتخلصت تماماً من عادة السعى إلى أهداف ليست أهدافي » . مرة أخرى يتأكد وجود الصدع الذي يحول بينه وبين الاندماج في الآخرين ، ووجود الاتجاه إلى تكوين عالم آخر له على هواه . وساعد هاينرش في موقفه ما قرأه من كتابات روسو عن الحرية والفردية وعن الإحساس الشخصي وعن الطبيعة باعتبارها مصدر البراءة والمجتمع باعتباره بؤرة الفساد .

وتصادف أن وقع في يده كتاب « نقد العقل الخض » للفيلسوف الألماني الأشهر كانط فقرأه وأوله تأويلاً لا يحتمله وتعلم منه الشك والاضطراب . وفي ذلك كتب إلى خطيبته يقول : « لقد هوى هدفي الأوحده ، لقد هوى هدفي الأسمى ، ولم يعد لي الآن هدف مطلقاً . ولم تعد الكتب تثير في غير التقزز » . : « لا يمكن أن نقطع بأن ما نسميه حقيقة هو حقاً حقيقة وليس تهبواً » . . . « وهكذا يكون سعيينا نحو الحقيقة سعيّاً بلا جدوى » . (٢٢ و ٢٣ مارس ١٨٠١) . لكن كلايست ظل يتعلق بنظرية كانط في التقنين الخلقى للفرد ، وكان رأيُه أن الحكم الخلقى مرجعه إلى الإحساس ، لكن إلى الإحساس الخالص وحده ، لأن الإحساس المضطرب لا يولد إلا الإثم . أما مجمل حصيلة كلايست من الفلسفة الكانطية فكان الشك في قيمة المعارف والحقائق والأخلاق والاتجاه إلى العدمية .

وخرجت مسرحيته «أسرة شروفنشتاين» (١٨٠١ - ١٨٠٢) مزيجاً من الروسية والكانطية على طريقته .

وترك هاينرش فون كلايست برلين برفقة أخته الوفية أولريكه إلى باريس زاعماً أن وجهته الدراسة . وأخذ معه أوراقه : «أسرة شروفنشتاين» ومسودات « كيتشن فون هايلبرون » و « بنزليا » . كانت باريس عاصمة أوروبا بلا منازع تجذب الأنظار كلها إليها . لكن هاينرش لم يجد فيها ضالته وتصور أن الأمة الفرنسية توشك على الفناء والتدهور ، وتبلورت في ذهنه فكرة عظمة الريف وبشاعة المدن وضرورة الهرب من المدينة إلى القرية . وهكذا رحل إلى سويسرا وهو يعتقد أنه قد عرف طريقه وتوصل إلى الصورة التي ينبغي لحياته أن تتخذها . أراد أن يمتلك مزرعة صغيرة تدر عليه ما يقيم به أوده ، وأراد أن تكون له في هذه المزرعة صاحبة تشاركه حياته البسيطة الريفية ، وأراد أن يعتمد في هذا الهدوء الريفى إلى تصنيف الأعمال الأدبية وبلوغ الشهرة حتى يمحو أثر أقاويل الشائتين ، ويبين لهم أنه بعد خروجه من الجيش قادر على بلوغ الشهرة بوسائله الخاصة . وكان لهاينرش فون كلايست كلف بالشهرة يجعله يتصور نفسه كأنه محارب يريد إخضاع الدنيا لإمرته بفرائد أعماله .

لكن أمله الذى بناه على ثلاث : مزرعة يعيش منها وعليها ، زوجة يأنس بها وإليها ، أدب يرتفع به نجمه ، ما لبث أن تبدد . فقد تراجعت خطيبته واثارت عائلتها الكريمة على ذلك الذى يريد أن يجعل من فتاة المجتمع صبية ريفية . وفسخت الخطبة . وتآلم هاينرش ألماً شديداً وكتب إلى خطيبته : « كفى عن الكتابة إلى ، فلم يعد لدى سوى رغبة واحدة : أن أموت عاجلاً » .

ولم يكن الألم الذى أصاب هاينرش ألماً نفسياً فحسب ، بل كان مرضاً جسمى نفسياً . كان هاينرش يحس صداعاً في رأسه ، وضيقاً في نفسه ، فاعتزل الناس

وأتم «أسرة شروفنشتاين» وبدأ مسرحية «جيسكارد» ولكنه بدأ يسخط على الحياة في سويسرا ويفكر في مغادرتها وكان نابليون يوشك أن يضمها إلى إمبراطوريته وكان آخر شيء يمكن أن يقبله فون كلايست أن يعيش في ظل حكم ذلك الأجنبي المتجبر . واختلطت هذه الانفعالات والأفكار والهواجس كلها في مشروع « روبرت جيسكارد » تلك المسرحية التي أراد أن يصل فيها إلى مستوى لم يصل إليه أحد في العالمين . واستجمع قواه الخائرة وحمل نفسه فوق طاقتها ، فأنهار انهياراً يوشك أن يكون تاماً ، وأرسل إلى أخته يخبرها بحاله وبأنه على قاب قوسين أو أدنى من الموت . فأسرعت إليه ، ووجدت القوات العسكرية تحاصر المدينة ، فبذلت جهداً كبيراً حتى تم لها اختراق الحصار ، ووجدت أخاها قد تماثل للشفاء ، ووجدت لديه صديقاً له هو ابن الأديب الألماني الشهير فيلاند نخشى أن ينكل به الأعداء لو كانت لهم الغلبة ، فساعدته على الهرب إلى ألمانيا . وهكذا مهدت هذه المساعدة التي قدمتها أولريكه للابن الطريق لاتصال هاينرش بالأب .

ترك هاينرش فون كلايست سويسرا وذهب إلى فامار ونزل ضيفاً على كريستوف مارتن فيلاند وتوطدت عرى الصداقة بينهما رغم ما لاحظته فيلاند الأب من غرابة في طباع كلايست . واستطاع فيلاند أن يجعل كلايست يقرأ عليه جزءاً من مسرحيته « روبرت جيسكارد » فأعجب بها إعجاباً شديداً وقال عنها : « لو اجتمعت قرائح انخيل وسوفوكل وشكسبير لإنتاج تراجيديا واحدة فلن تكون تلك سوى مسرحية كلايست عن موت جيسكار النورمانى ، إذا تمت وكانت في مجموعها من نوع المختارات التي قرأها على : والحق أنني منذ سمعت كلايست يقرأ مختارات من مسرحيته روبرت جيسكارد ، أيقنت أن كلايست قد ولد ليسد الفراغ العظيم في أدبنا ، ذلك الفراغ الذى لم يسده جوته ولم يسده شيللر » .

وقد وصلتنا من هذه المسرحية الفريدة غرتها (٥٠٠ بيتاً) ، كلما قرأناها أحسنا بالخسارة الفادحة التي منى بها الأدب الإنسانى كله بضياىء البقية وتحولها إلى رماد ودخان . فقد وفق كلايست فى مسرحيته إلى موضوع تاريخى له قيمته التاريخية من ناحية وله من ناحية ثانية قيمة رمزية ، فهو يشير إلى نابليون ويشير إلى كل طاغية يستبد فى الأرض ويعلو فيها علواً عظيماً ثم تحل به كارثة تفتح له حفرة للنهاية المحتومة فينقلب فيها . روبرت جيسكارد اغتصب الحكم اغتصاباً وراح يصول ويجول ويحشد حشوده لغزو بزنطة فاذا الطاعون يتفشى فى جنده ويصيبه هو أيضاً فينتهى ذليلاً مهيناً ، وكانت نهايته تبدو أشبه شىء بالتحال . وكان نابليون فى أوج مجده يصول ويجول ويحشد الحشود لغزو الدنيا كلها فتنبأ له كلايست بنهاية جيسكارد خاصة عندما تفشى الطاعون فى جند نابليون عند عكا .

واستعمل فيلاند نفوذه لدى الناشر جوشن فجعله ينشر مسرحية « عائلة شروفتشتاين » . وراح يشجع كلايست بمختلف الطرق . ولاحت بارقة أمل جديد فى حياة كلايست . فقد أولعت به « لويزه » ابنة فيلاند ، وكانت فتاة على جانب كبير من الجمال والركة ، واعتقد الأب أن كلايست سيتقدم إليه طالباً يدها ، وكم كانت دهشته عندما وجده يعد العدة للرحيل وينصرف . وكان الناس فى حيرة من أمره ، البعض يعتقد أنه مجنون ، والبعض يرد تصرفاته الغريبة إلى « العبقرية » (كان على سبيل المثال يكلم نفسه ، وكان يتوه فلا يرى من يكون أمامه ، وكان كثيراً ما يعجز عن التركيز على شىء بعينه) .

لم يرض هاينرش فون كلايست عما كتب وأعتقد أن أسلوبه دون الموضوعات التى يعالجها وأن مؤلفاته فى مجموعها أقل من المستوى الذى يطمح إليه ، وأن موهبته منقوصة . وفكر فى الانتحار ، لكن صديقه « بفيل » أخذه فى رحلة طويلة قطعها سيراً على الأقدام

ووصلها فيها إلى سويسرا وإيطاليا وفرنسا ليروح عنه . ولكن الرحلة لم تؤد إلى نتيجة حاسمة ، فقد كتب كلايست من جنيف فى أكتوبر ١٨٠٣ يقول : « الجحيم هو الذى أعطانى مواهبى المنقوصة ، فإن السماء الناس مواهب كاملة أو لا تهبهم مواهباً على الإطلاق » وبعد أسبوعين حرق مسودة روبرت جيسكارد ومسودات أخرى (فى باريس) .

استبدت هاينرش فون كلايست فكرة قصوره عن صب الأفكار فى القوالب اللائقة ، وقرر أن ينهى حياته . « قرأت فى باريس ما أنجزته من مؤلفات فأنكرته انكاراً وحرقته . . وانتهى الأمر . . لمنى أندفع إلى الموت » وفكر كلايست فى ساعة من ساعات اليأس أن ينضم إلى الجيوش النابليونية لموت فى الحرب كنوع من الانتحار ، ولكنه نبذ هذه الفكرة وقفل راجعاً إلى ألمانيا . والظاهر أن هاينرش كان لا يجد الشجاعة الكافية ، أو لا يريد أن يموت منتحراً هكذا بمفرده ، وكان يفضل أن يضع نفسه فى موضع ينصب عليه فيه الموت انصباباً ، أو أن يشترك مع آخر أو أخرى فى تنفيذ الانتحار على نحو ما سئى فيما بعد . ومرض هاينرش فون كلايست فى طريق عودته مرضاً شديداً أقعده فى ماينتس . فلما أبل استأنف رحلته وقصد فيلاند فزاره والتقى بلويزه ثم عاد إلى بوتسدام وبذل جهوداً كبيرة للعودة إلى العمل بالحكومة . لكن القصر الملكى كان يتشكك فيه لغرابته تصرفاته ، ولتحالته فى بلاد العدو فى أوقات حرجة ، ولتركه الجيش وانصرافه عن العمل الحكومى مرة . وفى النهاية نجحت الجهود ووافق القصر على تعيينه فى وظيفة بمدينة كونجسبرج بروسيا الشرقية (ضمت إلى روسيا بعد الحرب العالمية الثانية) . وكانت كونجسبرج مدينة تفيض بالنشاط الثقافى والعلمى والسياسى . كان فيها الأستاذ كريستيان ياكوب كراوس يدرس فى جامعها فلسفة عملية يهيج فيها منهج كانط من ناحية ومنهج آدم سميث من ناحية ثانية . ولسنا نعلم

إذا كان كلايست اتصل بهذا الأستاذ أم لم يتصل به ولكننا نعلم أن مسرحيته الرائعة « الأمير فريدرش فون هومبورج » فيها صدى كبير لفلسفة كانط واتجاه كراوس في تفسيرها . ثم اننا نعلم كذلك أن كلايست اتصل برجالات بروسيا الشرقية مثل أورسفالد ودونا وشون الذين اشتركوا بعد سنوات طويلة في حركة الإصلاح التي أعلنها فون شتاين وتمثلت في ثورة بروسيا الشرقية على نابليون (١٨١٣) دون انتظار أمر من الملك .

واستمرت إقامة كلايست في كونيجسبرج من مايو ١٨٠٥ إلى آخر ١٨٠٦ عاصر خلالها تغييرات سياسية جمة بالغة الأهمية . كانت سياسة بروسيا حول عام ١٨٠١ مبنية على الاعتقاد في امكانية التعايش السلمى بين بروسيا الملكية وفرنسا الثائرة ، فالزمت بالحياد في الخارج والداخل . وما جاء عام ١٨٠٥ حتى تأكد خطأ هذه السياسة . في ذلك العام جرد نابليون جيوشه وانقض على القوات النمساوية الروسية المتحالفة وهزمها وبدأت فرنسا تتبع سياسة توسعية . واتضح للسانسة في بروسيا أن سياسة الحياد ستضع بلادهم لقمة سائغة في فم الدكتاتور الزاحف وأن تغيير السياسة الروسية أمر لا مفر منه وأن السياسة الجديدة لا بد أن تكون سياسة ألمانية قومية .

وجاء هذا الاتجاه الجديد في السياسة الروسية على هوى كلايست ، فقد علمنا في مواضع كثيرة أنه كان يكره نابليون ويسخط عليه ، فزاد تحفه به وحنقه عليه حتى تساءل : « لم لا يوجد شخص ، شخص واحد فقط يسدد الرصاص إلى رأس ذلك الشبح القبيح الذى حل بالعالم ؟ ماذا يريد هذا اللاجئ بالضبط هذا ما أود معرفته » . كان من الممكن أن يتحول هذا الاندماج في الشعور القومى الوطنى العام إلى سبب يعيد إلى نفس كلايست الحائرة اتزانها ، ولكن الأحداث بينت أن اضطراب نفسه كان أعمق بكثير من أن يجدى

معه شىء من هذا القبيل . المهم أن كلايست اندفع في التيار الوطنى المناهض لنابليون اندفاعاً عميقاً ، حتى أنه كتب إلى الوزارة آتئذ يطالبها بالألا تراجع أمام نابليون خطوة وحشها على التصدى له . وتفجر ينبوع الأدب في نفسه دفاعاً ، وارتبط تدفقه باعتلال صحته . فطلب أجازة للاستشفاء ، وذهب إلى حمامات بيللاو . لكنه لم ينل الراحة التى كان ينشدها ، وعكف على أعماله فأنتج وعدل وجدد . كتب « المركز فون أو » و « ميشائل كولهاز » وأتم « الجرة المحطمة » وجهاز « أمفريون » للطبع وكتب شيئاً فى « بنترليا » وصاغ « زلزال شيلى » الصياغة النهائية .

نزلت بروسيا الحرب ضد نابليون ففشلت فيها المرة بعد المرة ، وتوالت أخبار الهزيمة فى بينا وأورشدت ، وانتصر نابليون ، وصرخ هاينرش فون كلايست « ٤٠ ألف جندى يحتشدون فى الميدان ولا ينتصرون ! » وفى أواخر يناير ١٨٠٧ سافر كلايست بصحبة ضابطين مسرحين من بروسيا الشرقية إلى برلين وكانت فى يد الفرنسيين . ولسنا نعلم للآن سبباً لهذه الرحلة الخطيرة ، ويميل نفر من المؤرخين إلى الاعتقاد بأن كلايست كان مكلفاً بمهمة سرية . كل ما نعرفه على وجه التحديد أن كلايست قبض عليه وزج به فى السجن ، وفشلت كل الجهود التى بذلت لاطلاق سراحه . وفى فبراير عام ١٨٠٧ نقل كلايست إلى فرنسا ، وعامله الفرنسيون معاملة المحرّمين وأهانوه وأذلوه ، ووضعوه فى سجن « فور دى جو » ثم نقلوه إلى سجن « شالو على المرن » ومنعوا عنه الورق والقلم فى أول الأمر ، ثم سمحوا له بهما بعد ذلك ، فراح يكتب . وفى يوم من الأيام فتحو باب السجن وقذفوا به إلى خارجه ، فوقف فى الطريق وهو لا يحتكم على شروى نقر . واستجلى هذا وذاك حتى تجمع له المال اللازم للعودة ، فعاد إلى دريسدن .

كانت دريسدن ، العاصمة السكسونية ، تعج في ذلك الوقت بتيارات أدبية منها تيارات الحركة الرومانتيكية ، وكان أهل دريسدن ، إذا قورنوا بأهل بروسيا المحتلة المنكسرة ، ينعمون بالحرية ، رغم أن سكسونيا كانت خاضعة لنابليون بدخولها في عصبة الراين . بقى كلايست في دريسدن ، ووجد فيها جمهوراً لمسرحياته وقصصه . بل إن بعض الجرائد تحدثت عنه ووصفته بأنه أديب ممتاز ، وارتفع نجمه في دريسدن حتى أنه يروى أن بعض المهتمين بالأدب قدموا إليه على مائدة عامة تاجاً من الغار تقديراً لبراعته . وفي صيف ١٨٠٧ تمت بنزلياً نهائياً وأرسلها في العام التالي إلى الناشر كوتا . واتجه كلايست في نشاطه اتجاهاً فيه شيء من الجدة . فقد أخرج بالاشتراك مع آدم مولر في مطلع عام ١٨٠٨ مجلة « فوبوس » ، مجلة للفن » ، شهرية . نشر كلايست في هذه المجلة بعض مؤلفاته السابقة كاملة ، ونشر من مؤلفاته الأخرى مقتطفات ، وكان طابع المجلة عموماً ، طابع الرومانتيكية . وحاول كلايست اجتذاب جوته للكتابة فيها ولكن جوته لم يفعل . وما لبثت العلاقة بين كلايست وجوته أن فترت وتحولت إلى كراهية خاصة بعد أن قطعت مسرحية « الجرة المخطمة » ومثلت مقطعة على مسرح فافمار ففشلت . لم يكتب جوته إذن في المجلة ، التي ما لبثت أن ماتت ولها من العمر عام وبعض عام .

كانت علاقة كلايست بمولر علاقة فريدة . خاصة من ناحية مولر . كان مولر يعتبر كلايست أعظم أديب معاصر وكان يحسب له على هذا الأساس حساباً ، ولكنه كان كثيراً ما يختلف معه ويتنازع . وقد ذكر مولر أن كلايست كان ينتج كثيراً وهو راقد في فراشه يلدن الغليون بلا توقف ، وأن كلايست كاشفه مرة بعزفه على الانتحار ورجاه أن ينتحر معه ، لأنه لم يكن يريد أن ينتحر بمفرده .

لم يكن وقوع بروسيا وغيرها من الأراضي الألمانية في قبضة الفرنسيين يعني أن أهل هذه المناطق قد رضوا بالهزيمة وقبلوا الاحتلال ورضخوا للتبعية الإمبراطورية النابليونية . إنما بدأت حرب التحرير يقوم بها جمع من الضباط والمدنيين ينظمون أنفسهم في تشكيلات سرية . وكانت أهم حركة هي التي قامت في النمسا . وتحرك ضمير هاينرش معها وكتب مسرحية جديدة « معركة هرمن » توحى بإيمان المؤلف بانتصار معركة التحرير انتصاراً لا ريب فيه . وما لبثت حرب التحرير في النمسا أن انتهت إلى الفشل ، وتحطمت آمال هاينرش فون كلايست . وانتقل بعد ذلك إلى براج (عاصمة تشيكوسلوفاكيا حالياً ، وكانت قديماً مدينة ألمانية) وحاول أن ينشئ فيها مجلة اسمها « جرمانيا » يعبر فيها الألمان عما يجيش في صدورهم . وفشلت المحاولة ، وأدى الفشل به إلى الوقوع في بأس شديد وإلى الإصابة بمرض عضال . حدث كل هذا وأهله ومعارفه في برلين يظنون أنه مات أو فقد . والحق أن معلوماتنا عن هذه الفترة من حياة كلايست قليلة وتفتقر إلى الوثائق . كل ما نعرفه أنه كتب قصائد وطنية مثل « جرمانيا تتحدث إلى أبنائها » تعتبر عنصراً هاماً في حركة التحرير . بل ربما كانت هذه القصائد الوطنية أعظم ما كتب في ذلك العصر في ذلك الموضوع . في هذه القصائد يتحدث كلايست بأسلوب من يعتقد أنه أصبح لسان أمته .

وبدأ هاينرش فون كلايست محاولة أخرى ، تتجه هذه المرة إلى الجمهور الواسع في برلين . فأخرج في أول أكتوبر ١٨١٠ جريدة يومية اسمها « برلينر آند بليتر » فيها أخبار بوليسية ، وأخبار مثيرة ، وأخبار عن الحوادث والحرائق ، وأخبار محلية . جريدة من نوع جرائد البولفار . ووزع العدد الأول مجاناً من قبيل الدعاية ، ولاقت الجريدة نجاحاً هائلاً . لكن النجاح ما لبث أن اعتراه الضمور التدريجي حتى

وأعد هاينرش خطة الانتحار بمنتهى الدقة . ففى ٩ نوفمبر ١٨١١ كتب إلى ماريا فون كلايست يقول : « وسط نشيد الانتصار الذى تبدأ روحى فى هذه اللحظة إنشاده للموت ، لا بد أن أفكر فيك . . لقد اتخذت لى أثناء غيابك عن برلين صديقة بديلة لك . . تريد أن تموت معى . . لأننى أموت لأنه لم يبق لى على الأرض شىء أتعلمه أو أجتنيه . . وداعاً ، أنت الوحيدة على الأرض التى أتمنى أن أراها فى الآخرة » .

وفى اليوم التالى كتب لها يقول : « لقد شقت خطاباتك قلبى ، يا عزيزتى ماريا ، وأؤكد لك أنه لو كان الأمر فى امكانى ، لصرفت النظر عن القرار الذى اتخذته بالموت . ولكننى أقسم لك أنه يستحيل على استحالة كاملة أن أظل على قيد الحياة بعد ذلك . إن روحى مجروحة جرحاً شديداً حتى أنى أود أن أقول لإننى عندما أخرج أنفى من النافذة أتلثم من النور الذى يسقط عليه . . لقد أدى اشتغالى الدائم بالجمال والأخلاق منذ صباى المبكر سواء فى أفكارى أو كتاباتى ، إلى أنى أصبحت حساساً لدرجة أن أقل الهجمات . . تؤلمنى ألماً مضاعفاً . . لقد أحببت اخوتى . . من كل قلبى ، ورغم أننى لم أتحدث من قبل عما سأذكره الآن ، فإنه من المؤكد أن أملاً من أحب وأعظم آمالى كان إتاحة السعادة والمجد لهم عن طريق أعمالى ومؤلفاتى . حقيقة إن الاتصال بى كان فى الفترة الأخيرة أمراً خطيراً من بعض النواحي . وأنى لا أتهمهم بشىء . لأنهم أنصرفوا عنى انصرافاً ظل يشد كلما فكرت فى المحنة العامة التى كانت تثقل كاهلهم هم أيضاً . ولكن مجرد التفكير فى عدم اعترافهم بالفضل كبيراً كان أو صغيراً ، الذى حققته ، واحساسى بأنهم يعتبروننى عضواً تافهاً فى المجتمع الإنسانى لا يستحق المشاركة بعد الآن ، يؤلمنى ألماً لا حد له ، وتحرمنى السعادة كلها التى كنت أرجو أن يحققها المستقبل ،

انتهت الجريدة بعد العدد ٧٢ ، لأن الجريدة لم تستطع الاحتفاظ بمستواها لأنها لم تستمر فى التجديد . وحاول كلايست فى ديسمبر ١٨١٠ أن ينقذ الجريدة من الخراب بتحويلها إلى جريدة حكومية أو إلى جريدة تحصل على إعانة من الحكومة . ولكن المحاولة باءت بالفشل . كان فشل الجريدة وفشل محاولة إنقاذها بتحويلها إلى جريدة حكومية صدمة كبيرة لهاينرش فون كلايست . وشاء القدر أن يضيف إلى هذه الصدمة صدمة أخرى ، فماتت الملكة لوييزة التى كانت تصرف له معاشاً متواضعاً ، فأصبح خالى الوفاص ، لا يجد إلا القليل الذى يبعث به إليه ناشرو أعماله والذي يستجديه من أخته . حتى أخته ابتعدت عنه بعد إلحاح الأسرة ، وكان هاينرش يريد جر رجلها إلى مشروعاته الصحفية ، الفاشلة .

كان كلايست فى وسط هذه المحنة لا يجد تفرجاً لكربه إلا عند واحدة من بنات عمومته ماريا فون كلايست ، فى الخمسين من عمرها ، على وشك الطلاق دون ذنب منها ، واسعة الصدر ، واسعة العلم . شكها لها محنته ، فسمعت له ، ورجاها أن تسير معه إلى الموت فلم تفهم ، وظلت وفية له ، حتى تلقت آخر ما كتب . وتعرف كلايست على يائسة من الحياة هى هنريته فوجل ، كانت مصابة بمرض لا شفاء له ، يعتقد النقاد أنه سرطان فى الرحم ، وأخبرها طبيبها بأن آلامها لن تنتهى . كان هاينرش فون كلايست كما أشرنا من قبل يبحث عن شخص ينحدر معه ، فلم يجد . آدم مولر رفض . ماريا فون كلايست رفضت هى الأخرى . وحاول هاينرش مع هنريته فوجل فوافقت ، بل وتحملت للفكرة ، مع أنها لم تكن وثيقة الصلة به . لم تكن هنريته خليلته ، بل كانت معجبة به ميالة إليه على نحو ما ، فقد كانا يشتركان معاً فى عزف بعض القطع الموسيقية .

ب) أعمال كلايست

المؤلفات التي بقيت ووصلت إلينا هي الجزء الأكبر من أعمال هاينرش فون كلايست . أما الباقي فقد حرقه صاحبه (روبرت جيسكارد مثلاً) أو ضاع نتيجة الإهمال مثل « قصة نفس » : وتنقسم أعمال هاينرش فون كلايست إلى :

أولاً - مسرحيات :

- ١ - أسرة شروفلشتاين ١٨٠١ .
- ٢ - روبرت جيسكارد ١٨٠٢ (٥٠٠ سطر من الأول) .
- ٣ - الجرة المحطمة ١٨٠٦ .
- ٤ - أمفريون ١٨٠٧ .
- ٥ - بنتزليا ١٨٠٨ .
- ٦ - معركة هرمن ١٨٠٨ .
- ٧ - كيتشن فون هايلبرون ١٨٠٨ .
- ٨ - الأمير فريدرش فون هومبورج ١٨١٠ : (ترجم إلى العربية) .

ثانياً - قصص :

- ١ - ميشائل كولهاز (ترجمت إلى العربية) :
- ٢ - المركيزة فون أو .
- ٣ - زلزال في شيلي :
- ٤ - خطبة في سانت دومنجو :
- ٥ - متسولة لوكارنو .
- ٦ - اللقيط .
- ٧ - القديسة تسيستيلية أو قوة الموسيقى :
- ٨ - النزال .

ثالثاً - طرائف ، قصص قصيرة ، حكايات :
حوالى ٣٠ قطعة .

بل ويسمى إلى الماضى كله . ثم التحالف الذى عقده الملك الآن مع الفرنسيين ليس من شأنه أن يجعلنى أتمسك بالحياة . . أضيفى إلى هذا أننى وجدت صديقة تهيم روحها كالنسر الصغير ، صديقة لم أجد مثيلاً لها فى حياتى . تفهم حزنى على أنه حزن عظيم ، ثابت الجذور ، مستعص على الشفاء ، وتريد لهذا أن تموت معى رغم أنها أوتيت من الوسائل ما كان يمكن أن يسعدنى هنا . . لأنها تركت من أجلى أباً يعيدها ، وزوجاً كان من الكرم بحيث تركها لى ، وابناً جميلاً كشمس الصباح بل أجمل ، وستفهمين أن كل همى المتهازل لا يدور إلا حول البحث عن هاوية ذات عمق كاف حتى أهوى فيها معها - وداعاً ، مرة ثانية ! » .

وعندنا تفصيلات دقيقة عن ساعات هاينرش وهنريته الأخيرة . فى يوم ٢٠ نوفمبر ذهبوا إلى فندق على بحيرة فانزیه فأكلوا وتناولوا القهوة ثم ذهبوا كل إلى حجرته ، فكتبوا خطابات وناما . وفى اليوم التالى سدا حساب الفندق ، وكلفوا صاحب الفندق بارسال ساع بالخطابات إلى برلين ، ثم تناولوا الطعام وشربا القهوة ، ثم خرجا ، وسارا إلى البحيرة نحو خمسين خطوة : وسمع من بالفندق ومن حوله طلقتين . وأسرعت زوجة صاحب الفندق إلى مكان الرصاص فوجدت جثتين هامدتين . كان كلايست قد سدّد المسدس إلى قلب صديقته من ناحية اليسار ثم دس المسدس فى فمه ونسف مخه . ودفنت الجثتان (هاينرش فون كلايست ٣٤ عاماً - هنريته فوجل ٣١ عاماً) فى المكان نفسه ، وكتب على قبره « عاش وغنى وتألّم فى وقت عصيب واتمس الموت هنا فوجد الخلود » .

وآخر ما كتب ، خطاب إلى أخته أولريكة يقول فيه :
« لقد فعلت ، لا أقول ما فى طاقة أخت ، بل أقول ما فى طاقة بشر ، لانقاذى . والحقيقة أنه لم يكن من الممكن فعل شىء من أجلى على وجه الأرض . . » .

رابعاً - مقالات سياسية :

نشرت في جريدة « برلينر آبند بليتر » وبعضها كانا معداً لينشر في جريدة « جرمانيا »

خامساً - مقالات عن الفلسفة والفن والأدب :

بعضها نشر في جريدة « برلينر آبند بليتر » وبعضها لم ينشر في حينه . وأهم هذه المقالات مقالة « عن مسرح العرائس » نشرت في جريدة « آبندبليتر » .

سادساً - قصائد :

بعضها قصائد مناسبات ، مثلاً لتحية الجنرال فون تسينجه وزوجته بمناسبة العام الجديد (١٨٠٠) . وأهمها القصائد السياسية مثل « جرمانيا تتحدث إلى بنينا » .

(-) الجرة المحطمة

في ديسمبر عام ١٨٠١ كان هاينرش فون كلايست في سويسرا ، لاذ بها بعد طول حيرة واضطراب وتخط في فرنسا ، لاذ بها بحثاً عن النجاة من أول أزمة تعرض لها في حياته . وفي مطلع عام ١٨٠٢ كان هاينرش فون كلايست يتردد كصديق على الأديب هاينرش شوكة في بيته بERN . وهناك التقى بلودفيج فيلاندر ابن الأديب الألماني الشهير مارتن كريستوف فيلاندر ، وهاينرش جستر ابن الأديب الألماني المعروف سالومون جسنر . كان هؤلاء الأدباء الشبان يلتقون ويتحدثون في الأدب والفنون ويطالعون طرفاً من أعمالهم . وفي لقاء من هذا النوع تولدت فكرة « الجرة المحطمة » . وقد حكى هاينرش شوكة في كتاب له باسم « نظرة إلى الذات » صدر عام ١٨٤٢ ، القصة : « وهكذا اجتمعنا ، كرامة فرجيل ، للتنافس في قرض الشعر . وكانت في حجرتي صورة فرنسية مطبوعة بالنحاس اسمها « الجرة المحطمة » . رأينا في أشخاصها حبيبين حزينين ، وأماً ثائرة معها جرة من الفخار

المصقول الملون ، وقاض ضخم الأنف (ورأينا أن نتنافس في نسج عمل فني حول هذه الصورة) كان على فيلاندر أن ينشئ قصيدة ، وكان على جسنر أن ينشئ قصة ، وعلى كلايست أن ينشئ كوميديا . « وقد أنشأ كل واحد منهم بالفعل العمل المقترح ، ونال كلايست الجائزة .

« الجرة المحطمة » كوميديا في فصل واحد ، أو على الأصح كوميديا بلا فصول تدور حول الأشخاص التاليين :

فالتر : مستشار

آدم : قاضي محكمة القرية

ليشت : كاتب المحكمة

السيدة مارتة رول

ايفه : ابنتها

فايت تومبل : فلاح

روبرشت : ابنه

السيدة بريجيتة

بالإضافة إلى أشخاص ثانويين : خادم ، حجاب ، خادمت .. الخ .

وتجري الأحداث في القرن الثامن عشر في قرية هولندية قرب أوترشت ، وعلى وجه التحديد في قاعة المحكمة .

وتبدأ المسرحية بكاتب المحكمة ليشت ، يلتقي بالقاضي آدم ذات صباح في قاعة المحكمة ، ويتبين أن القاضي منحرف المزاج ، مضطرب الحال ، لا يريد أن ينظر في منازعات الناس . وما يلبث الكاتب أن يكتشف أن القاضي مصاب بجروح في رأسه ووجهه . فيسأله عما به ، فيرتبك أشد الارتباك ويدعي أنه تعثر وانقلب وهو يهيم بالهوض من الفراش ، وتصادف وقوعه على المدفأة ذات الأجزاء الحديدية الحادة . وبينما القاضي آدم يحكي محنته ، تأتي الأخبار بأن

المستشار فالتز يقوم بجولة تفتيشية في المنطقة وبأنه فصل أحد القضاة لتهاونه في عمله ووجهه حتى حاول الانتحار وتضيف الأنباء أن المستشار فالتز في طريقه ليغتنش على القاضي آدم . وهنا يبلغ اضطراب آدم أشده ، ولا يعرف حيلة ينقذ بها نفسه من المصيبة التي يحس أنها توشك أن تحل به . ولا يجد أمامه إلا كاتبه ليشت فرجوه ألا يبرز طموحه اليوم وأن يقف إلى جواره ، وكان الكاتب ليشت يسعى للحصول على منصب قاضي .

وقبل أن يهيئ القاضي نفسه ويعد العدة لاستقبال الزائر الجليل ، يظهر المستشار . ويضطرب آدم أشد الاضطراب خاصة وأنه لا يضع على رأسه الباروكة ، ويجلس برأسه عارية حتى من الشعر ، مما لا يليق بالحكمة . ويخترع آدم أسباباً مضحكة مهلهلة يفسر به ضياع باروكته . وتجري محاولات للحصول على باروكة أخرى ، ولكنها كلها تفشل . ويرش القاضي على رأسه شيئاً من البودرة ويبدأ الجلسة بأمر المستشار ، الجلسة التي سيحضرها المستشار ليتأكد من أن القوانين توضع موضع التنفيذ ومن أن الإجراءات تتبع كما ينبغي . ويندفع إلى قاعة المحكمة جمع من القرويين يتصارعون ويتشائمون ويرجون تدخل القاضي لفض نزاعهم . السيدة مارتة رول تسب روبرشت ، ابن الفلاح فايت تومبل ، وتتهمه بأنه كسر جرة لها كانت في حجرة ابنتها إيفه . ويرد روبرشت بأن ثورة السيدة مارتة ليس مرجعها إلى الجرة ، بل إلى العرس ، فقد كانت تربطه بإيفه روابط الخطبة ، ويسب روبرشت إيفه متهماً بإيها بسوء الخلق .

وما أن يرى آدم هذا الجمع حتى ينهار أو يوشك على الانهيار ، ويظهر وهو يحاول التحدث إلى إيفه ، وتهديدها ، قبل أن تبدأ الجلسة . ويراه المستشار وهو همس إلى إيفه بشيء فينهره وينبهه إلى ملءم قانونية التحدث إلى المتخاصمين قبل الجلسة . ويبدأ آدم في أخذ الأقوال ، مرغماً . ويحاول تطويل الإجراءات

والمناقشات وإخراجها عن طريقها وادخالها في مسالك ودروب أخرى . وتدل مارتة بأقوالها ، فتصف الجرة التي أتت إلى المحكمة من أجلها ، وتبين أنها جرة فريدة في نوعها تحمل رسماً قيماً ، وتذكر كيف أنها سمعت بالليل ضجيجاً في حجرة ابنتها وتبينت صوت رجل ، فأسرت إلى حجرة الابنة فوجدتها شاحبة يائسة ووجدت الجرة محطمة على الأرض ووجدت عندها الصعلوك روبرشت . وتضيف أقوالها أن روبرشت أنكر أنه هو الذي كسر الجرة الثمينة وأدعى أن شخصاً آخر هو الذي أوقعها وكسرها . أما أقوال روبرشت فتدور حول أنه كان بالفعل عند إيفه ، وأنه لمح عندها رجلاً لم يستطع التعرف عليه ، لأنه قفز من النافذة ولاذ بالفرار عندما أحس بمقدمه . ويضيف روبرشت أنه قفز وراء هذا المجهول وقذفه بمزلاج الباب ، وظل يطارده في الظلام حتى أوشك أن يمسك به ، فذر هذا في عينيه حفنة من الرمل ، مما أدى إلى توقفه عن المطاردة ويستمتع القاضي آدم إلى هذا كله بمزيج من الخوف والحب ، فهو خائف أن يأتي في كلام الشاهد شيء في غير صالحه ، وهو يلجأ إلى الحبث فيطيل حبث المناقشات ويخرجها عن وجهتها . ويلاحظ المستشار المفتش تصرف القاضي وتحامله على روبرشت فينبهه إلى ما في ذلك من تجاوز لحدود العدل والتقاضى . بل ويضيف إلى ذلك أن هذه القضية ستكون آخر ما ينظر من القضايا ، ويصر على ضرورة تتبع الأحداث الواردة في أقوال الشهود للوصول إلى حقيقة الأمر . وكان واضحاً أن إيفه هي التي تملك مفتاح اللغز فهي - ربما وحدها - التي تعرف الرجل الذي كان في حجرتها عندما أتى روبرشت . فلما اتهم روبرشت الاسكاف ليبرشت بأنه هو الفاعل ، حاول آدم توجيه القضية هذا الجرى . ثم يأتي دور إيفه لتدلي بشهادتها ، فيهددها آدم ويتوعدها إن هي نطقت بأساء أخرى . وتكتفى إيفه بنفى التهمة عن روبرشت ، وتلوذ

(د) حول «الجرة المخطمة»

خرجت كوميديا الجرة المخطمة كما أشرنا من رسم منقول عن لوحة فرنسية بالاسم نفسه صنعها «لوفو» عام ١٧٨٢ ، عن لوحة (مفقودة) للفنان ديوكور كان اسمها «القاضي أو الجرة المخطمة» . ومن يتأمل الرسم الذي استوحاه هاينرش فون كلايست لا يجد به ما يوحي بأن القاضي مزور مذنب . يبين الرسم شاباً وشابة يبدو عليهما الحزن ، والشابة حامل ، أما القاضي فيجلس على منصته ، وقوراً ، لا يبدو عليه أنه يسب أحداً ، ولا يبدو عليه أنه لا يثق في كاتبه .

وهنا نتساءل من أين أتى كلايست بالتفاصيل الكثيرة التي نجدها في كوميدته ؟ وبين البحث أن كلايست في الفترة التي بدأ فيها كتابة «الجرة المخطمة» كان يكثر قراءة سوفوكل ، وبصفة خاصة مسرحيته «أوديب ملكاً» ، وأنه تأثر بهذه المسرحية تأثراً كبيراً يؤكد ذلك إشارته إلى سوفوكل في مقدمة «الجرة المخطمة» ، في معرض مقارنته بين سؤال القاضي آدم عن محطم الجرة وبين سؤال «أوديب ملكاً» عن قاتل لايوس . والحق أن وجه الشبه بين آدم وأوديب كبير . أما أحداث «أوديب ملكاً» التي نشير إليها ، فتتخلص في إصابة طيبة بالطاعون والتجاء أهلها إلى الملك أوديب ملتمسين معونته للمرة الثانية ، وكانت معونته الأولى تتمثل في انقاذهم من الضر الذي كان الحيوان الفظيع أبو الهول (سفنكس) ذو الرأس البشري ينزله بهم . يبعث أوديب إلى دلفي من يسأل العرافة عن سبب الطاعون ، ويأتي الجواب : الطاعون الذي حل بطيبة سببه عدم الثأر للملك لايوس الذي مات مقتولاً . فيكرس أوديب جهوده للبحث عن قاتل لايوس . ويحاول العراف أن يصرفه عن هذا الأمر فلا ينصرف . فيكشف له الأمر : قاتل لايوس هو أوديب نفسه . لكن الأمر يبدو في نظر أوديب كلغز : هذا اللغز

بالصمت . والظاهر أنها كانت خائفة من ذكر الفاعل الحقيقي ، حتى لا يؤدي ذكره إلى أذى يلحق بروبرشت . ويأتي بعد ذلك دور الشاهدة بريجيتة : فتلقى شهادتها الضوء على هذه القضية الغامضة . ويبدو أن آدم كان يتوقع هذه النتيجة فبدل جهداً جهيداً ليصرف نظر المستشار عن القضية من ناحية وليبعد الشبهة عن نفسه من ناحية ثانية . وتتلخص شهادة بريجيتة في أنها وجدت باروكة هي باروكة القاضي (يتضح أن القاضي فقدتها أثناء فراره من بيت إيفه وتعرضه لمطاردة روبرشت) . وتحكى بريجيتة كيف تعرفت على صاحب الباروكة ، بأن تبعت آثار الأقدام فوجدتها تنتهي إلى بيت القاضي ، وفحصت آثار الأقدام فوجدتها للقاضي دون شك فقد كان له قدم مشوهة . على أن بريجيتة لم تهم القاضي بشيء صراحة واكتفت بالإشارة المبهمة . واعتمد القاضي آدم على هذا فحكم بإدانة روبرشت وبالزج به في السجن . وهنا تخرج إيفه عن صمتها وتعلن أن القاضي نفسه هو الذي حطم الجرة ، وتخر ساجدة أمام أقدم المستشار لينقذ من المؤامرة الدنيئة التي دبرها القاضي آدم ليصرفها عن روبرشت مدعياً أن السلطات طلبته للخدمة العسكرية في الهند وكان معروفاً أن من يذهب إلى تلك الحرب لا يعود منها ، وتنتهي إلى ليلة دخل عليها القاضي حجرتها متسللاً فطلب منها ما لا تستطيع النطق به نظير تدخله لدى السلطات لإلغاء طلب روبرشت . وهكذا تنتهي خدمة القاضي آدم بفضيحة ، ويعين المستشار فالتر الكاتب ليشت خلفاً له ، ويقرر أنه سيخفف عن آدم العقاب إن كانت حسابات المحكمة مضبوطة . ويتصالح روبرشت وإيفه . لكن السيدة مارتة لا تقبل هذه النهاية التي انتهت إليها قضية «جرتها المخطمة» ، وتصمم على تقديم شكوى إلى السلطات العليا في أوترشت .

يتكشف تدريجياً . كان العرافون قد تنبأوا لأبيه لايوس بأنه سيموت مقتولاً على يد ابنه . فنبذ ابنه أوديب . وكبر الابن أوديب ، في قصر الملك يوليبيوس وهو يعتقد أن ذلك الملك هو أبوه . وحدث يوماً أن صادف أوديب في الطريق رجلاً مسناً اشتبك معه وقتله ، كان هذا الرجل هو لايوس ، أبوه . . . إلى آخر المسرحية : والفرق بين آدم وأوديب هو أن آدم كان يسأل وهو يعلم الجواب الأليم ويجهد في إخفائه أو تمويهه ، وأوديب كان يسأل وهو لا يعلم الجواب الأليم . ولكن القاسم المشترك موجود . أصله من سوفوكل .

وناحية التشابه الثانية التي نود الإشارة إليها في هذا المقام ، هي اللغز وطريقة تكشفه . والأديبان يتبعان طريقة واحدة (كلايست يقلد سوفوكل طبعاً) إذ يقدمان لغزاً ، ثم يأتي الأشخاص الواحد تلو الآخر فيكشفون أمره « تحليلياً » . وكلايست حور الطريقة السوفوكلية فأصبحت عنده تتخذ شكل « الاستجواب » أو « الادلاء بالأقوال » ، ومسرحيات كلايست كلها

بلا استثناء تقريباً قائمة على هذه الطريقة .

ويعتقد بعض النقاد أن كلايست تناقش مع فيلاند الكبير في فاممار (أكتوبر ١٨٠٢ - فبراير ١٨٠٣) في الفن الأرسطوفاني خاصة . والمعروف أن فيلاند كان مهتماً اهتماماً كبيراً بالآداب اليونانية وكان حجة فيها ، وكان في ذلك الوقت عاكفاً على إخراج ترجمات لها . وربما دار الحديث بين كلايست وفيلاند حول تكتيك سوفوكل وأحسن فيلاند بأن كلا قد لمس وتراً أساسياً في فن الأديب القديم ، ظهر في حكمه عليه .

إذا صح افتراضنا ، يكون سوفوكل هو أول مصدر استقى منه كلايست « المكملات المسرحية » لرسم « الجرة المخطمة » ، المكملات اللازمة لتحويله الصورة إلى دراما . وسوفوكل هو في رأينا المصدر الأول . وهناك مصادر أخرى ، نرى أنه استقى منها مكملات أخرى . في بحثنا عن أصل شخصية المستشار

المفتش التي أضافها كلايست إلى الصورة ، تقع على شكسبير ومسرحيته « دقة بدقة » خاصة التي تلقى ضوئاً على هذه الشخصية ، بل وعلى نواح كثيرة أخرى . مسرحية شكسبير تدور حول أمير فيينا فنستيو الذي يكلف وزيره أنجيلو بالسهر على تنفيذ قانون قاس لإصلاح ما فسد في البلد من أخلاق . وتعرض حالة كلاوديو وجوليا فيحكم أنجيلو على كلاوديو بالإعدام . وتحاول ايزابيللا أخت جوليا أن تثني أنجيلو عن عزمه تنفيذ حكم الإعدام ، فيطلب شرفها ثمناً لذلك . ويتدخل الأمير ، متنكراً في ثياب راهب ، وينصح ايزابيللا بالالتجاء إلى الحيلة ، والتظاهر بالقبول ثم تقديم ماريانه إلى أنجيلو في الظلام . لكن أنجيلو رغم حصوله على مأربه ، يصر على إعدام كلاوديو . وهنا يحضر الأمير ويجري محاكمة أنجيلو على رأس الأشهاد ويكيل له بالصاع الذي كان هذا يوشك أن يكيل هو به لكلاوديو .

شخصية المستشار المفتش الذي يرد الحق إلى نصابه شخصية استوحاها كلايست على ما يبدو من شخصية الأمير فنستيو : شخصية صاحب السلطة العليا الذي يتدخل في الوقت المناسب ليقاضي القاضي أو الحاكم الظالم . ويبدو أن كلايست تأثر بالمسرحية أبعد من هذا ، فأخذ منها عناصر أخرى نذبه منها إلى محاولة القاضي (أنجيلو في حالة شكسبير) الاعتداء على فضيلة إيقه (ايزابيللا في حالة شكسبير) والتهديد بقوة المصعب . والحق أن تحليل أعمال كلايست لا بد أن تصل في أعماقها إلى طبقتين على الأقل ، الأولى المسرح اليوناني القديم ، والثانية المسرح الشكسبيري . والعمل الكلايستي قائم على فلسفة كانط ، أو ما اعتقد كلايست أنه فلسفة كانط ، وأهم ما فيها أن الحياة أساسها التناقض ، وأنها تحتل أكثر من معنى ، وأنها تستعصى على التعليل ، وأنها تجذب المرء وتنفره في آن واحد ، الدنيا فيها شيء مضحك .

هـ) من الجرة المحطمة

المشهد الأول

المنظر : قاعة المحكمة

آدم يجلس ويضمّد ساقه . ليشت يدخل

ليشت : آه ، يا ساتر ، ماذا دهالك يا عم آدم ! قل لي .

كيف تغير شكلك هكذا ؟

آدم : نعم ، إن الإنسان لا يحتاج لكى تزل قدماه

إلا إلى قدمين . هل هناك فوق هذه الأرضية

المساء شىء يمكن أن يرتطم به إنسان فنزل ؟

ومع ذلك فقد زلت قدمائى هنا ، لأن كل

إنسان يحمل فى ذاته الحجرة العثرة التى يرتطم

بها ويزل .

ليشت : لا ، يا للعجب ! تقول يا صديقى إن كل

إنسان يحمل الحجرة العثرة ... ؟

آدم : نعم ، تحملها فى ذاته .

ليشت : أعوذ بالله .

آدم : ماذا تريد ؟

ليشت : إنك تنحدر من جد زلول زل فى الأيام

الأولى للخلقة زلة أصبح بسببها مشهوراً فى

العالمين . ولعلك ... ؟

آدم : لعلنى ماذا ؟

ليشت : لعلك أنت أيضاً ... ؟

آدم : لعلنى أنا ... ؟ أظن أنك ... ولكنى قلت

لك إننى زلت هنا .

ليشت : فزلت هكذا زلة يستعصى وصفها على

الواصفين ؟

آدم : أصبت ، زلة يستعصى وصفها على الواصفين

لشدة قبحها .

ليشت : ومتى وقعت تلك الواقعة ؟

آدم : الآن ، عندما كنت أهم بالنزول من السرير .

كنت أحرك لسانى بأغنية الصباح فإذا بي

أنقلب فأقع فيه ، وإذا بالله سبحانه وتعالى

يلوى قدمى قبل أن أبدأ يومى .

ليشت : ويلوى قدمك اليسرى بلا شك ؟

آدم : اليسرى ؟

ليشت : هذه ، الممددة ؟

آدم : بالضبط .

ليشت : سبحانك ربي من إله عادل ! القدم التى سارت

فى طريق الخطيئة فأثقلت ؟

آدم : القدم ! تقول ، أثقلت ؟ لماذا ؟

ليشت : هذه القدم المعوجة ؟

آدم : نعم القدم المعوجة . وإن كانت قدمائى كلتاها

معوجتين .

ليشت : لا ، اسمح لى . أنك بهذا تظلم قدمك اليمنى .

قدمك اليمنى لم تنتشر بهذا التضخم ، ولها

جراحة على العثرات .

آدم : هه ! ما تكاد قدم تزل حتى تتبعها الأخرى .

ليشت : وما الذى شوه وجهك على هذا النحو ؟

آدم : وجهى أنا ؟

ليشت : يا للعجب ؟ ألا تعلم بما حدث له ؟

آدم : أكذب لو قلت أنى أعلم أن شيئاً حدث له -

ماذا به ؟

ليشت : ماذا ألم به ؟

آدم : نعم ، قل لى يا صديقى .

ليشت : شكله بشع .

آدم : وضح كلامك .

ليشت : وجهك مشوه ، يثير الرعب فيمن يراه .

وخذلك تنقصه قطعة ، قطعة كبيرة ، ولا

تسألنى عن حجمها ووزنها ، فلا أستطيع

تقدير ذلك بغير ميزان .

آدم : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

لشت : (يحضر مرآة) . هه ، تأكد أنت بعينيك .
إن خروفاً تطارده الكلاب فتزج به وسط
الأشواك لا يفقد من الصوف قدر ما فقدت
أنت من اللحم ، والله وحده يعلم أين .

آدم : هه ! نعم ، صدقت . منظر قبيح . حتى أنفى
أصيب .

لشت : وعينك .

آدم : لا ، يا صديقي ، عيني لم يصبهما شيء .

لشت : آه ، هنا ضربة مستعرضة توحى بأن فاعلها
سفالك متعطش إلى الدم ، ويكاد المرء يجزم
بأنه عبد ضخم غضوب هصور .

آدم : هذه هي عظمة العين . . تصور أنني لم أحس
بهذا كله مجرد احساس .

لشت : نعم ، نعم . فالإنسان لا يحس بما يحدث له أثناء
اضطرام المعركة .

آدم : المعركة ! ماذا تعني بالمعركة ؟ . . لقد
اشتبك في معركة مع الجدى المرسوم على
المدفأة ، لعل هذه هي المعركة التي تعنيها .
الآن تذكرت ما حدث . الذي حدث هو
أننى فقدت توازنى ، ومددت كالسكارى
يداي في الهواء بحثاً عن شيء أستند عليه ،
فتعلقت بسرراويلي التي كنت قد علقتها بالليل
على قاعدة المدفأة ليجف ما بها من بلل . هل
فهمت ما حدث ؟ لقد أمسكت بسرراويلي
وأنا أعتقد بغبائى أنني أستند على شيء ،
فانقطعت أربطتها ، ووقعنا جميعاً : الأربطة
والسرراويل وأنا ، وخررت أنا بجبتهى على
المدفأة ، وبالصبط على الركن الذى يبرز فيه
الجدى منخاره .

لشت : (يضحك) عظيم ، عظيم جداً .

آدم : أعوذ بالله !

لشت : أول وقعة تشبه وقعة سيدنا آدم ، تقعها من
السريير .

آدم : يا حسرتى ! - كنت أريد أن أسألك عن
شيء - نعم ، هل هناك أخبار جديدة ؟

لشت : نعم ، تسألنى عن الأخبار الجديدة . يا للمصيبة
كدت أنسى .

آدم : تنسى ماذا ؟

لشت : استعد لزيارة مفاجئة من أوترشت .

آدم : ماذا تقول ؟

لشت : سيأتى السيد المستشار .

آدم : من ؟

لشت : السيد المستشار فاتر سيأتى من أوترشت . وهو
يقوم حالياً بجولة تفتيشية يفتش خلالها على
الحاكم وسيكون عندنا اليوم .

آدم : تقول اليوم . قل لى الحقيقة ؟

لشت : أقسم لك . كان السيد المستشار أمس في قرية
« هولا » المجاورة وقتش على المحكمة هناك .
وقد رأى بعض الفلاحين الخيل تركب اليوم
في عربته لتقله إلى هويزوم .

آدم : اليوم . المستشار . يأتى إلى هنا . من أوترشت .
للتفتيش . هل يصدق لإنسان أن هذا الرجل
الكريم الذى يجز صوف حملانه بنفسه ،
ويكره المقلب ، يأتى ، كما تقول إلى
« هويزوم » ليغيظنا .

لشت : ما دام قد وصل إلى « هولا » ، فهو آت بلا
شك إلى « هويزوم » . وأنصحك أن تأخذ
حذرك .

آدم : ما عليك .

لشت : لقد أبلغتك .

آدم : وأنا أقول لك ابعد عني بتخريفك .

لشت : لقد رآه الفلاح بعيني رأسه ، صدقني بالله عليك .

آدم : ومن يعرف أى رجل ذلك الذى رآه الصعلوك الأعمش . إن هؤلاء الصعاليك لا يعرفون الفرق بين الوجه والقفا ، إذا كان القفا حليفاً هات قبعة وضعها على عصاي ولف العصا بمعطف وضع تحتيها حذاء ، وأدخل عليها صعلوكاً تجده يعتبرها من تشاء من الناس .

لشت : شأنك . استمر في تشككك حتى تجده يدخل عليك من هذا الباب .

آدم : هو ، يدخل ! دون أن نخطرنا بمقدمه سلفاً .
لشت : يا للغباء ! إنك تتحدث كما لو كان القادم هو المفتش السابق ، المستشار فاخهولدر .
المفتش الآن هو المستشار فالتر .

آدم : ولو كان هو المستشار فالتر ! دعني وشأني .
لقد أقسم الرجل اليمين وهو يؤدي عمله مثلنا حسب القوانين القائمة والعرف السائر .

لشت : ولكنى أوكد لك أن المستشار فالتر فاجأ « هولا » أمس وفتش على الخزينة وعلى السجلات وعزل القاضى والكاتب . أما لماذا عزلها ؟ فهذا ما لا أعرفه .

آدم : أعوذ بالله . الفلاح أبلغك بهذا ؟

لشت : بهذا وبكثير غير هذا

آدم : هكذا ؟

لشت : أتريد المزيد ؟ عندما ذهبوا صباح اليوم إلى القاضى المغزول وكان محبوساً في بيته ، وجدوه في الجرن ، معلقاً في عرق من عروق السقف

آدم : ماذا تقول ؟

لشت : فحضر أهل المروعة وحلوه وأنزلوه وظلوا يدلكونه ويرشونه بالماء حتى ردهه إلى الحياة إلى الحياة العارية .

آدم : هكذا ؟ ردهه إلى الحياة ؟

لشت : ولكن كل شيء في داره مختوم بالشمع الأحمر ، كل شيء محجوز عليه ، والرجل الآن أقرب إلى الجثة منه إلى الإنسان الحي ، انتهى وورث منصبه وارث .

آدم : آه ، سبحان الله ! لقد كان كلباً مقيناً غارقاً في الملذات — ولكنى أقسم بحياتي أنه فيما عدا ذلك من الأمور كان رجلاً شريفاً ، وإنساناً .
تجب أن تجالسه . أما في الملذات فكان خسيساً خسيساً خسة فظيعة ، هذا حقيقة لا بد أن يقال . وإذا صح أن المستشار كان اليوم في « هولا » فلا شك أن المسكين ذاق الأمرين .

لشت : وقال الفلاح إن حادثة القاضى هذه هي التي عطلت المستشار عن الحضور إلى هنا على الفور ، ولكنه سيصل هنا ظهراً .

آدم : ظهراً ! حسناً ، يا صديقي ! وعلينا أن نبين الآن حقيقة صداقتنا ، فأنت تعلم ، ولا تخفى عليك أن اليد الواحدة لا تصفق . وأنا أعرف أنك تتمنى الوصول إلى منصب قاضى قرية ، وأقسم بالله إنك جدير بذلك وأنت لا تقل في هذا الأمر عن غيرك . ولكن اليوم ليس يوم السعى لتحقيق هذه الأمنية ، دع الكأس يمر عليك إلى غيرك ولا تمدن يدك إليه .

لشت : يا سيادة القاضى . تقول هذا على ! هل ترتاب في ؟

آدم : إنك تحب الكلام المنمق ، وقد درست — رغم تقول البعض — سيسرون في المدرسة بأستردام لكن أعقل طموحك اليوم ، وأطعني .
وستعرض في المستقبل ظروف تستطيع أن تبرز فيها بفنك .

لشت : ونكون زميلين ! دع عنك هذا الحديث !

- آدم : وأنت تعلم أن ديموستين العظيم كان يسكت إن كان الوقت يستوجب الصمت . فاتبع مثله . وسأعرف كيف أكافئك على صمتك بطريقتي ، رغم أني لست ملك مقدونيا .
- لشت : دع عنك هذا الشك ، هل حدث مرة أني . . . ؟
- آدم : أما أنا ، فاتبع من جانبي مثل ديموستين ، مثل ذلك الأغريقى العظيم . من الممكن طبعاً أن يدبج الإنسان خطبة يتحدث فيها عن الودائع المودعة فى خزانة الحكمة وعن الفوائد التى تدرها . ولكن أين ذلك الإنسان الذى تسهويه كتابة مثل هذه الخطبة .
- لشت : فماذا ترى ؟
- آدم : أنا طاهر الثوب لا ممسنى شىء من أمثال هذه التهم ، والعياذ بالله . وكل ما تناقلته الألسن عن هذا الموضوع لا يزيد عن أن يكون نكته ولدت بالليل الدامس وتخشى أن يطلع عليها نور النهار الوضاح .
- لشت : أعرف هذا .
- آدم : رباه ! ثم لأننى لا أجد سبباً واحداً يلزم القاضى بأن يكون وقوراً ثقیلاً الظل كالدب القطبى خارج قاعة المحكمة .
- لشت : هذا ما أراه أيضاً !
- آدم : حسناً . والآن تعال معى يا صديقى إلى السجلات ، أريد أن أرتب الدوسيهات المكسدة التى تبدو كأنها برج بابل .

